الحالة أولَى بهذا الميراث .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] تنبيه إلى أن الإنسان يجب عليه أنْ يحفظ بُضْعة اللقاء حتى من آدم عليه السلام ؛ لأنك حين تتأمل مسألة خَلْق الإنسان تجد أننا جميعاً من آدم ، لا من آدم وحواء .

يُرْوى أن الحاجب دخل على معاوية ، فقال له : رجل بالباب يقول : إنه أخوك ، فقال معاوية : كيف لا تعرف إخوتى ، وأنت حاجبى ؟ قال : هكذا قال ، قال : أدخله ، فلما دخل الرجل سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ قال : أخوك من آدم ، فقال معاوية : نعم ، رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أول مَنْ يصلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] الحق سبحانه يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً ، فمَنْ حضر منهم قسمة فَلْيكُنْ له منها نصيب على سبيل التطوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء]

وقوله سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أي : فى أم الكتاب اللوح المحفوظ ، أو الكتاب أى : القرآن .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية عامة لموكب الرسل جميعاً :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ
وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

كلمة (إذ ، إذا) ظرف لحدث ، تقول : إذا جاءك فلان فأكرمه ، فالإكرام مُعلّق بالمجيء ، والمعنى هنا : واذكر إذْ أخذ الله من النبيين ميثاقهم ، وهذه قضية عامة في الرسل جميعاً ، ثم فصّلها الحق سبحانه بقوله :

﴿ ومنك ومن نُوحٍ وإبْراهيم وموسىٰ وعيسى ابْنِ مريم .. ⑦ ﴾ [الأحزاب]

الميثاق : هو العهد يُؤخذ بين اثنين ، كالعهد الذي أخذه الله تعالى أولاً على الخَلْق جميعاً ، وهم في مرحلة الذَّرّ ، والذي قال الله عنه :

﴿ وإذْ أخذ ربُّك من بني آدم من ظُهُورهِمْ ذُرِّيَّتهُمْ وأشْهدهُمْ علىٰ أنفُسهِمْ ألسْتُ بربِّكُمْ .. ⑰② ﴾ [الأعراف]

فما العهد الذي أخذه الله على النبيين ؟ العهد هنا هو : الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أنْ يكون رسولاً وسفيراً بين الله تعالى والخلق ، وحين يصطفي الله رسولاً ليبلّغ الناس شرع الله ، هذا الاصطفاء لا يرد ، إذن : فهو عرض مقبول ، وحين يقبله الرسول كأنه أخذ عهداً وميثاقاً من الله تعالى بأنْ يحمل رسالة الله إلى الخَلْق ، فهي - إذن - مسألة إيجاب وقبول .

فقوله تعالى : ﴿ وإذْ أخذْنا من النّبيّين ميثاقهُمْ .. ⑦ ﴾ [الأحزاب]

الآخذ هو الحق سبحانه ، والمأخوذ منه هم النبيون ، والميثاق : العهد الموثّق ، والعهد تعاهد وتعاقد بين طرفين على أمر يُحقّق الصالح عندهما معاً ، ولو اختلف واحد منهما ما تَمّ العقد ، فإنْ كان الطرفان متساويين اشترط كل منهما ما يراه لنفسه في العقد .

فإنْ كان الميثاق من الأعلى إلى الأدنى فهو الذي يأخذ العهد للأدنى ، لماذا ؟ لأنك جعلته في مرتبة أنْ يعطي عهداً ، ويُوثق بينك وبينه أشياء ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وميثاقهُ الّذي واثقكُم به .. ⑦ ﴾ [المائدة]

والمواثقة مفاعلة بين الطرفين : أنتم واثقتُموه به وهو واثقكم به ؛ لأن

الرسل حين يختارهم الله ، لا شكَّ أنه سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختار الله رسولاً ، فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريده الله من العهد .

وهل رأينا رسولاً في موكب الرسالات عُرِضَتْ عليه الرسالة فرفضها ؟ إذن : قبول الرسالة كأنه العهد ، جاء من طرف واحد في إملاء شروطه ؛ لأنه الطرف الأعلى ، وحيثية التوثيق في أن الله اختاره ، وجعله أهْلاً للاصطفاء للرسالة .

لذلك رأينا في قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لما اصطفاه الله للرسالة آنس من نفسه أنها مسألة كبيرة بالنسبة له ، لكن لم يردَّها ، إنما طلب من الله أنْ يسانده في هذه المسئولية أخوه هارون ، فقال للحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا [1] يُصَدِّقُنِي .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

فلم يقل : أنا لا أصلح لهذه المسألة ، إنما أذعن لأمر الله ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ومسألة العقدة التي في لسانه يستعين عليها بأخيه .

إذن : كلمة (الميثاق) تدور حول الشيء المؤكَّد الموثَّق ، ومنه قوله تعالى عن الأعداء : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ [2] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [محمد]

ثم يأتي تفصيل هذه القضية العامة : ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ

---

(١) ردأه : قوّاه وأعانه . والردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

(٢) أثخنتموهم : غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . وأثخنته الجراح : أوهنته والإثخان في كل شيء : قوته وشدته . [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

﴿ ... وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ⑦ ﴾ [الأحزاب]

قوله (مِنْكَ) أى من سيدنا رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، لكن لماذا قدَّم محمداً ﷺ على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثانى للبشرية كلها بعد آدم عليه السلام ؟

نعلم أن البشرية كلها من سلالة آدم عليه السلام ، إلى أنْ جاء عهد نوح عليه السلام ، فانقسموا إلى مؤمن وكافر ، ثم جاء الطوفان ولم يَبْقَ على وجه الأرض إلا نوح ومَنْ آمن به ، فكان هو الأب الثانى للبشر بعد سيدنا آدم .

لذلك يقول البعض : إن نوحاً عليه السلام رسالته عامة ، كما أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عامة . ونقول : عمومية نوح كانت لمن آمن به ولأهل السفينة فى زمن معلوم ومكان محدد ، أما رسالة محمد فهى عامة فى كل الزمان ، وفى كل المكان .

أما تقديم ذكر محمد ﷺ أولاً ؛ لأن الواو هنا عادة لا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، إنما هى لمطلق الجمع ، ثم قدم رسول الله لأنه المخاطب بهذا الكلام ، ومن إكرام الله لرسوله أنْ يبدأ به فى مثل هذا المقام ، ثم لهذا التقديم ملحظ آخر نفهمه من قوله ﷺ عن نفسه « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »(١) .

ثم يخصُّ بالذكر هنا نوحاً ؛ لأنه الأب الثانى للبشر ، ثم إبراهيم وموسى وعيسى ، فإبراهيم ، لأن العرب كانت تؤمن به ، وتعلم أنه

---

(١) قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٢٤٢) : « لا أصل له بهذا اللفظ » وقد أخرج الترمذى فى سننه (٣٦٠٩) من حديث أبى هريرة قال : قالوا يا رسول متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب . وفى الباب عن ميسرة الفجر .

أبو الأنبياء ، وتُقدِّر علاقته بالكعبة ورَفْع قواعدها ، وأنه قدوة فى مسألة الذَّبْح والسَّعْى وغيرها .

وموسى وعيسى ؛ لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ، حيث كان اليهود فى المدينة ، والنصارى فى نجران ، وهما أهل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى ، وكانت لهم فى الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة العمرانية والسيادة الحربية ، وكأنهم هم أصحاب هذه البلاد .

ومن العجيب أن هؤلاء كان الله سبحانه - فى ميثاقهم مع أنبيائهم - يدخرهم ليشهدوا لمحمد بصدْق دعوته ؛ لذلك كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا ويقولون لعبدة الأصنام : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ، فكانوا يعرفون زمان رسول الله وموطنه ، وأنه سيُبعث فى أرض ذات نخل ، ومن صفاتها كذا وكذا ، لذلك لما قطّعهم الله فى الأرض أمماً وشتتهم ، جاء المشتغلون منهم بالعلم إلى يثرب ينتظرون بعثته ﷺ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

إذن : فأهل الكتاب كان من المفترض فيهم أنْ يشهدوا لرسول الله بصدْق الرسالة ، لكن يحكى القرآن عنهم بعد هذا كله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فكيف إذن تم هذا التحول ؟ وكيف تنقلب عقيدة القلب إلى تمرُّد القالب ؟ قالوا : إنها السلطة الزمنية التى أحبوا أنْ تبقى ، وأنْ تدوم لهم ، فقد بُعث الرسول وهم أهل مال وتجارة وأهل حِرَف وعمارة ،

وخافوا من رسول الله ومن الدين الجديد أن يسلبهم هذه المكانة ، وأنْ يقضي على هذه السيادة ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) ﴾ [البقرة]

لهذا خصَّ بالذكْر هنا موكب الأنبياء موسى وعيسى عليهما السلام .

ونلحظ أن السياق ذكر موسى عليه السلام ، ولم يذكر له أباً ، أما في عيسى عليه السلام فقال : ﴿ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.. (٧) ﴾ [الأحزاب] وهذا دليل على أنه يؤكد الأصالة في الإنجاب ، فالأب هو الأصل إنْ وُجِد مع الزوجة ، فإنْ لم يوجد الأب فالأبوة للزوجة ؛ لذلك نسب عليه السلام إلى أمه .

وجاءت هذه المسألة لتبرهن على طلاقة القدرة الإلهية ، فمسألة الخَلْق ليست عملية ميكانيكية تخضع لقانون ، إنما هي قدرة الله التي خلقتْ آدم بدون أب ولا أم ، وخلقت حواء من أب دون أم ، وخلقتْ عيسى عليه السلام من أم بدون أب ، وخلقتْ سائر الخَلْق من أب وأم ، وهكذا استوفى الخَلْق القسمة العقلية في كل صورها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ﴾ [الأحزاب] أي : من الأنبياء ، والميثاق الغليظ أي المؤكد ، فقد وسَّعه الله وأكده حينما أخبر أنبياءه ورسله أنهم سيُضطهدون وسيُحاربون من أممهم .

لذلك لم يُوصَف الميثاق بأنه غليظ إلا في هذا الموضوع ، وفي علاقة الرجل بالمرأة حين يطلقها ، وقد فرض لها مهراً ، فينبغي أنْ يُؤديه إليها ، ولو كان قنطاراً ، يقول سبحانه : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾ [النساء]

فسمَّى الميثاق بين الزوجين ميثاقاً غليظاً أى : قوياً ومتيناً ؛ لأنه فى العِرْض ، ولم يُوصَف الميثاق فيما دون ذلك بأنه غليظ .

وهذا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الرسل المذكِّرين المبشِّرين المنذرين جاء تفصيله فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

والشىء الذى شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء ، لكن لماذا أخذ الله هذا العهد ؟ قالوا : لأن الذى لا يؤمن بإله ليس لديه دين يتعصَّب له حين يأتى رسول جديد ، لكن من الصَّعب على الإنسان أن يكون له دين ، ثم يأتى رسول جديد ليزحزحه عن دينه ، وهنا تكمن المشقة التى يعانيها الرسل .

لذلك قال الله تعالى للرسل : من تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم إذا جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتُؤمنن به ولتنصرنه[2] ، ثم أقررهم على ذلك ، وأشهدهم عليه فشهدوا ، والمعنى : إياكم أن تتركوا أممكم التى تؤمن بكم بدون أنْ تضعوا لهم هذه القاعدة ، ففيها الوقاية لهم .

---

(١) الإصر : القيد والثقل والعهد المؤكد . وسميت التكاليف الشاقة إصراً ؛ لأنها تشق على المكلَّف وتثقل عليه ، وقوله ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .. (٨١) ﴾ [آل عمران] أى : عهدى . [القاموس القويم ١/٢١] .

(٢) أخرج ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد ، لئن بُعث وهو حى ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ .. (٨١) ﴾ [آل عمران] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير المأثور ٢/٢٥٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

اللام هنا فى ﴿ لِيَسْأَلَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لام التعليل ، فالمعنى أننا أخذنا من النبيين الميثاق ، لكن لن نتركهم دون سؤال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لكن إذا كان المبلِّغ صادقاً ، فكيف يسأل عن صدقه ؟

سؤال الصادق عن صدْقه ليس تبكيتـاً للصادق ، إنما تبكيتاً لمن كذَّب به ، سنسأل الرسل : أبلغتم هؤلاء ؟ ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] ويسأل الله القوم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام]

فالاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذَّب .

أو : يكون المعنى ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أنتم بشَّرتم بأن الإله واحد ، فأنـتم صادقون ؛ لأنكم أخذتُمْ هذه منى ، ولما قامت الساعة ولم تجـدوا إلهاً آخر يحمى الكافرين ، إذن : فقـد صدقت فيـما أخبـرت به ، وصدقتم فـيما بلغـتم عنى ، حيث لم تجدوا فى الآخرة إلا الإله الواحد .

لذلك يقـول سـبحـانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] ولو كـان معـه سـبحـانه إله آخـر لَدافع عن هؤلاء الكافـرين ، ومنعهم من العذاب .

كذلك يسأل الرسل عن البعث الذى وعد الله به ، وبلَّغوه لأممهم ،

وعن الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، وكأن الحق سبحانه يسألهم : هل تخلَّف شيء مما أخبرتكم به ؟ هل قصرت في إثابة المحسن أو معاقبة المسيء ؟ إذن : صدق كلامي كله .

كما تجلس مع ولدك مثلاً تراجع معه المواد الدراسية ، وتحثُّه على المذاكرة فيُوفَّق في الامتحان ، ثم تسأله : ماذا فعلت في إجابة السؤال الفلاني ؟ فأنت لا تقصد الاستفهام ، إنما تستعيد معه أمجاد ما أنجزه بالفعل تسأله عن توفيق الله له ، كذلك الحق سبحانه يستعيد مع الرسل وَقْفتهم لدين الله وإعلاءَهم كلمة الحق في هذه الساعة ولا مردَّ لها .

إذن : فسؤال الصادقين عن صدقهم تكريم لهم ، وشهادة بأنهم أدَّوْا ما عليهم ، وهو كذلك تبكيت لمن كذَّب بهم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب]

والفعل الماضي هنا دليل على أن كل شيء معدٌّ وموجود سلفاً ، ولن ينشيء الحق سبحانه شيئاً جديداً ، كذلك قال عن الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى خلق الجنة لتسع الناس جميعاً إنْ آمنوا ، وخلق النار كذلك تسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، يعني : لن تكون هناك أزمة أماكن ، فإذا ما أخذ أهل الإيمان أماكنهم من الجنة

---

(١) قال القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٥٣٨٨/٧) :

« فيه أربعة أوجه :

أحدها : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش .

الثاني : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ، حكاه علي بن عيسى .

الثالث : ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة » .

تتبقى أماكن الذين كفروا شاغرة ، فيقول تعالى للمؤمنين : خذوها أنتم :[1] ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

وقد وصف العذاب مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه شديد ، ولكل منها ملحظ ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة والإيلام ، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المعذَّب والنيل من كرامته ، فمن الناس مَنْ يحاول التجلُّد ، ويُظهر تحمل الألم وعدم الاكتراث به ، في حين يؤلمه أنْ تنال من كرامته ، فيناسبه العذاب المهين .

لذلك يُرْوى في التجلد أن رجلاً دخل على معاوية في مرضه ، وهو يُظهر للناس أنه بخير وصحته على ما يرام ، فقال له الرجل :

وَإِذَا المنيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفَارهَا ... أَلفيْتَ كُلَّ تَميمةٍ لاَ تَنْفَعُ

فـفطن معاوية إلى مقصده ، وأجابه من نفس قصيدة أبي ذؤيب[2] :

وَتجلُّدِي لِلشَّامتِينَ أُرِيهُموا ... أنِّي لرِيْبِ الدهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ[3]

أمـا العذاب العظيم فلِعظمه في ذاته ، ولكبر حجمه يعني ليس صغيراً ، أو يكون صغير الجرم ، لكن عظمته في صفاته ، أو في بقاء

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٩٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٢) عزاه شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٣٢ لأبي ذؤيب الهذلي ، وانظر ديوان الهذليين القسم الأول ص ٣ . [وعزاه ابن منظور لأبي ذؤيب في اللسان ـ مادة : ضعع] .

(٣) الضعضعة : الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شيء . ورجل ضعضاع أي : لا رأي له ولا حزم . [لسان العرب ـ مادة : ضعضع] .

أثره فى زمن طويل .

ويُوصَف العذاب بأنه شديد لشدة المعذِّب سبحانه ؛ لأنه سبحانه إذا أخذ فأخْذه أخْذ عزيز مقتدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله فى الآيات السابقة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾[الأحزاب] فجاء بحادثة جمعتْ كل فلول خصومه ، فقد سبق أن انتصر عليهم متفرقين ، فانتصر أولاً على كفار مكة فى بدر ، وانتصر على اليهود فى بنى النضير وبنى قينقاع ، وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ، ومع ذلك لن يؤثر جمعهم فى الصدِّ عن دعوتك ، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله .

إذن : فحيثية (وتوكل على الله) هى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب] النعمة : الشيء الذى يخالط الإنسان بسعادة وبِشْر وطلب استدامته ، وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى الإيمان ؛ لأن استدامة النعمة فيه تعدَّتْ زمن الدنيا إلى زمن آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، وإنْ كانت نعمة الدنيا على قَدْر أسبابك وإمكاناتك ، فنعمة الآخرة على قَدْر المنعم سبحانه ، فهى إذن : نعمة النعم .

والله تعالى يخاطب هنا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين بوجود إله واحد له كل صفات الجلال والكمال ، والله سبحانه يكفى العقل أنْ يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة التى لا تعاند ، لكن ليس من عمل العقل أنْ يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ، فكان ولابُدَّ من البلاغ عن الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بمَنْ يطرق علينا الباب ، فنتفق جميعاً بالعقل على أن طارقاً بالباب ، هذا هو عمل العقل ، لكن أمن عمل العقل أن نعرف مَنْ هو ؟ أو نعرف مقصده من المجيء ؟ وهذا ما نسميه التصور .

فآفة العقل البشرى أنه لم يقنع بالتعقل للقوة القاهرة الفاعلة ، فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكون قوةً ، هذه القوة لها صفات الكمال التى بها أوجدتْ هذا الكون ، فإنْ أردنا معرفة ما هى هذه القوة فلابُدَّ أنْ نترك هذا الطارق ليخبرنا عن نفسه ، ويفصح عن هدفه وسبب مجيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند الله يخبرنا عن هذه القوة ، عن الله ، عن أسمائه وصفاته ومنهجه الذى ارتضاه لخَلْقه ، وما أعدَّه الله لمَنْ أطاعه من النعيم ، وما أعدَّه لمَنْ عصاه من العذاب .

فإنْ كذَّبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدْقه فى البلاغ أخرج لنا من المعجزات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ؛ لأنه أتى بلون مما ننبغ فيه نحن ، وفن من فنوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله .

إذن : فالتعقُّل أول مراحل الإيمان ؛ لذلك فإن أبسط ردٍّ على مَنْ يعبدون غير الله أن نقول لهم : بماذا أمرتكم آلهتكم ؟ وعمَّ نهتْكم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن أطاعها ؟ وماذا أعدَّت لمنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى تستعبدكم به ؟

فكان من منطق العقل ساعةَ يأتينا رسول من عند الله أنْ نستشرف له ، ونُقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذى لا نعرفه من أمور الحياة والكون ، كان علينا أن نستمع له ، وأن ننصاع لأوامره ؛ لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكرى ، ومن مأزق عقلى لايستطيع أحد منَّا أنْ يُحلّه ، كان على القوم أن يتلهفوا على هذا الرسول ، لا أن يعادوه ويعاندوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها باقية .

وقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. ۝ ﴾ [الأحزاب] ما هو الذكر ؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسِّ يقارن بينها ويُغربلها ، ثم يحتفظ بها فى منطقة منه تمثل خزينة للمعلومات ، وما أشبه العقل فى تلقى المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التى تلتقط الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء فى تلقى المعلومات ، المهم أن تصادف المعلومة خُلوّ الذِّهْن مما يشغله .

وهذه المنطقة فى العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهى لا تلتقط إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة ، أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هى التى تستدعى لك هذه المعلومة ، وتُخرجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

ثم هناك ما يُسمَّى بتداعى المعانى ، حين يُذكِّرك شىء بشىء آخر ، وهناك المخيِّلة ، وهى التى تُلفِّق أو تُؤلِّف من المعلومات المختزنة شيئاً جديداً ، ونسميه التخيُّل ، فالشاعر العربى حين أعجبه الوشم باللون الأخضر على بشرة شابة بيضاء تخيَّلها هكذا .

خَـوْدٌ كـأنَّ بَنَـانَهَا فِـى ... نَقْشَـةِ الوَشْـمِ المُـزَرَّدْ[١]
سَـمَكٌ مِنَ البـلـلُّوْرِ فِـى ... شَبَكٍ تكوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدْ[٢]

فهذه صورة تخيُّلية خاصة بالشاعر ، وإلا فَمَنْ منَّا رأى سمكاً من البللور فى شـبك من زبرجد ؟ فللشاعـر نظرته الخاصـة للصور التى يراها ، وسـبق أنْ ذكرنا الصـورة التى رسـمهـا الشاعـر[٣] للأحدب ، فقال :

قَصُرَتْ أخَـادعُه[٤] وغَاصَ قَذَالُه[٥] ... فَـكَـأنَّهُ مُـتربِّصٌ أنْ يُصْـفَـعَا
وَكـأنَّـمَـا صُفِعَـتْ قَـفَـاهُ مَـرةً ... فَأحَـسَّ ثانيـةً لَهَـا فَتَجَـمَّعا

ومنذ القِـدَم يعتبـر الشعـراء القلبَ محـلاً للحب وللمشـاعر ، لكن يخـرج علينا هـذا الشـاعـر بصورة أخـرى جـديدة من نَسْج خيـاله ، فيقول :

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَثِيرُ مَـودَّتِي ... فَـأُحِــسُ مِنْها فِـى الفُؤادِ دَبِيبا
لاَ عُضْـوَ لِـى إلاَّ وَفيهِ صَـبَـابَةٌ ... فَـكَـأنَّ أعْـضَـائى خُلِقْنَ قُلُـوبَا

---

(١) الخود : الفـتاة الحسنة الخَلْق الشابة ، مـا لم تَحِض . وقيل : الجـارية الناعمـة . [لسان العرب ـ مـادة : خود] ، والمزرد : هى حلق الدرع متداخلة في بعضـها ، والمقـصود أن الوشم متقن متشابك متداخل .

(٢) الزبرجد : الزمرد . وهو الزبردج أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) الشـاعر هـو : ابن الرومى على بن العـباس بن جـريج . شـاعـر كبيـر من طبـقة بشـار والمتنبى ، رومى الأصل ، كان جده من مـوالي بنى العبـاس ، ولد ببغـداد ٢٢١ هـ ونشأ بها . ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الاعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٤) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين في جانبى العنق .

(٥) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذال] .

فمعنى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ۝٩ ﴾ [الأحزاب] لا تمروا على النعم بغفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها فى بؤرة شعوركم ؛ لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلى مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء وللذهاب للمسجد ، كذلك حين تزكى تُخرج من مالك ، أما الذكْر فلا يُكلِّفك شيئاً .

لذلك فى سورة الجمعة حينما يستدعى الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩ ﴾ [الجمعة] فهنا حركتان : حركة إيجاب بالسعى إلى الصلاة ، وحركة سلْب بترْك البيع والشراء ، وكلّ ما يشغلك عن الصلاة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝٤٥ ﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أنْ تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه ، فذكْر الله لا وقتَ له ؛ لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكْر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمر بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله .

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه ؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها ، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق - عز وجل - ونعمة من نعمه ؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك .

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين ، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية ، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر .. الخ وساعتها ينبغى عليك أنْ تشكر المنعم الذى عافاك مما ابتلى به غيرك ، إذن : فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنعَم الخالق .

والنعمة وردتْ هنا مفردة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ، يقولون : فكيف تُعَدُّ ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعانى وأساليب القرآن .

ونقول : الذى تروْنه نعمة واحدة ، لو تأملتُم فيها لوجدتم بداخلها نعَماً متعددة تفوق العَدَّ ؛ لذلك استخدم القرآن هنا (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن نعمَ الله ليست مظنَّة العَدِّ والإحصاء كرمال الصحراء ، هل تعرَّض أحد لعدِّها ؟ لأنك لا تقبل على عَدِّ شىء إلا إذا كان مظنَّةَ العَدِّ ، وإحصاءَ المعدود .

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا : إنْ حاولتم إحصاء نعَم الله ـ وهذا لن يحدث ـ فلن تستطيعوا عدَّها ، مع أن الإحصاء أصبح علْماً مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه .

ولك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نعَم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وفى عناصرها ومُكوِّناتها وفوائدها وصَفاتها ، وسوف تجد فى طيَّات النعمة الواحدة نعَماً شتَّى ، فالتفاحة مثلاً فى ظاهرها نعمة واحدة، لكن فى ألوانها ومَذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوُّع هذا كله نعَم كثيرة .

والحق سبحانه جعل نعمه عامة للمؤمن وللكافر ؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً ، مَنْ أحسنَ هذه الأسباب أعطتْه ، حتى لو كان كافراً .

ثم نلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] أنها وردتْ فى القرآن مرتين ، ولكل منهما تذييل مختلف ، فمرَّة يقول تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] . ومرة يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامل المنعَم عليهم من الخَلْق بما يقتضيه إيمانهم ، وما يقتضيه كفرهم ، لأعطى المؤمن وسلَب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم بخَلْقه ، فبهاتين الصفتين يُنعم سبحانه على الجميع ، وما ترفلون فيه من نعَم الله عليكم أثر من آثار الغفران والرحمة ، فغفر لكم معايبكم أولاً ، والغفر : أنْ تستر الشىء القبيح عمَّن هو دونك .

ثم الرحمة ، وهى أنْ تمتدَّ يدك بالإحسان إلى مَنْ دونك ، وسبق أنْ أوضحنا أن المغفرةَ تسبق الرحمةَ ، وهذه هى القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمةُ المغفرةَ ؛ ذلك لأن السَّلْب للشىء المذموم ينبغى أن يسبق النعمة ، أو : أن دَفْع الضرر مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

وقد مثَّلْنا لذلك باللصِّ تجده فى دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلمه للبوليس ، ثم يرقّ له قلبك ، فتمتد يدُك إليه بالإحسان ، وهنا تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقد تتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدَّم فيها الرحمة على المغفرة . والمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأدنى ، فتستر على القبيح قُبْحه ، وأنت أعلى منه ، فلا يقال مثلاً للخادم : إنه ستر على سيده .